# صبي من إفرن

## بين الترجمة والبنية الروائية.

بديعة الطاهري

**مقدمة**

تخلق ترجمة بعض النصوص التخيلية والأدبية - في بعض الأحيان- مسافة عازلة بين النص المترجم والنص الأصلي. يحس القارئ بظلال ذاتية المترجم، وثقافته وسلطته، عبر الإضافة أو التغيير أو الحذف الذي يلحق بعض أجزاء النص الأصلي.

ولا تختلف ترجمة الرواية العبرية إلى اللغة العربية عن هذا الوضع. فقد سعى العديد من المترجمين العرب إلى تكييفها كي لا تسيء إلى مشاعر العربي أو تثير حفيظته، بحذف العبارات النابية في حق العرب، والتخفيف من حدة العداء الذي يسم خطاب الشخصيات اليهودية، و أجواء التوتر الموجود ة في النص بين اليهودي والعربي، بل كثيرا ما يغير المترجم العربي مضامين النص العبري ويضيف إليها، ويستثمر تعابير عامية، وبنى لغوية بدلالات ثقافية عربية وإسلامية لا وجود لها في العبرية، يستمدها من الثقافة الشعبية المحلية، ومن الشعر العربي القديم، ومن القرآن الكريم(1). و في أحيان أخرى يغفل المترجم، التعدد اللغوي في النص العبري، ويعتمد مستوى لغويا واحدا هو اللغة العربية الفصحى.

إن ما يفسر هذه الاستراتيجية في الترجمة - فضلا عما أشرنا إليه سابقا- هو عدم فهم النصوص العبرية وغموض عوالمها من جهة، و التعامل مع الترجمة باعتبارها مجرد وسيلة تقرّب نصوصا تتيح الاطلاع على المجتمع الإسرائيلي، وليس غاية في حد ذاتها من جهة أخرى ،فالواقع أن المترجم" لم ينظر إلى هذه الترجمات بوصفها ترجمات أدبية، بل نصوصا تسهم في التعرف على الإسرائيلي / اليهودي الصهيوني"(2).

يضيع اختلال الترجمة العديد من خصائص النص الإبداعي، ويحول هذا الأخير إلى وثيقة تستغل لأغراض غير ثقافية وجمالية، متناسيا أن النص الإبداعي والرواية خاصة، ليس مجرد وعاء لمضامين ومحتويات تسربها اللغة المباشرة، وأنه بناء وطريقة في القول(3)

وأن اعتماد المستويين معا وحده قادر على الإلمام بالهوية النصية(4). وتلك غاية لن تتأتى للمترجم ما لم يتحل بالموضوعية، وبمعرفة علمية تخول له الإنصات إلى النص، وتوفير شروط حياته، واستمراره الأدبي، والحفاظ على طاقاته الجمالية والدلالية.

**1- موضوعية الترجمة.**

يعتقد قارئ رواية **صبي من إفران** (5)، دونما مجاملة، أنه أمام نص غير مترجم كتب في الأصل باللغة العربية، إذ لا يشعر بوجود المترجم، ولغته و أسلوبه. وهو أمر يتأكد ( بالنسبة لمن لا يعرف المترجم خاصة ) من خلال مقارنة أسلوب مقدمة المترجم،ولغتها بلغة الرواية. أسلوب في المقدمة متين يعتمد على الإيقاع نفسه في التركيب والتخييل اللغوي. لا يضعف ولا يختل إن في بنائه أو تركيبه. يحافظ على وحدته وتماسكه. يختلف عن أسلوب الرواية الذي تحقق بتنويعات متعددة تستدعيها بنية الرواية؛ إذ لا نعثر فيها على مستوى لغوي واحد. اللغة في هذا النص الروائي متعددة، تتراوح في سجلها وإيقاعها بين مصدرين على الأقل:

- مصدر ديني وما يصاحبه من خطاب صوفي خاصة،
- وآخر أدبي وما يسمه من انزياحات ويؤسسه من صور شعرية.

ونلحظ في المصدرين معا تنويعات تستجيب للسياق الذي تتحقق فيه وبه لغة الرواية،إذ تتواتر لغة التوراة والنصوص الدينية، والخطب والدعاء والأشعار والأغاني الشعبية، متيحة بذلك تنوعا يخدم أحد جوانب أطروحة الرواية؛ وهو تثبيت هوية الشخصيات الثقافية، المتراوحة بين الدين والعرق. يقيم النص الحدود بين الشخصيات اليهودية والشخصيات العربية، على مستويات عدة ترتبط بنظام الحياة والسلوك والعبادة وغيرها. وتتحدد، بناء على هذه الحدود، مجموعة من السمات تملأ البطاقة السميائية للشخصيات اليهودية، وتجعل منها شخصيات لا تقبل النقص. وتتجلى موضوعية الترجمة، فضلا عما سبق- انطلاقا من مستويين :

أ-توثيق النصوص الدينية الذي بفضله يستطيع القارئ إدراك التعدد الصوتي والأسلوبي الذي يسم الرواية، والتمييز بين خطاب الشخصيات والخطابات الدينية التي تتخلل بنيتها، بل و تنصهر فيها، ولا تعلن عن نفسها أو مصدرها، في كثير من الأحيان، إلا بفضل هوامش المترجم(6). وبناء عليه، تكتسب هذه الهوامش قيمة مضاعفة. فهي تغني

من جهة، ذاكرة القارئ وتوسع معارفه في المجال الديني اليهودي، وتساعد،من جهة أخرى،على فهم سيرورة المعنى وطرق بنائه في هذه الرواية. إن النصوص الدينية ليست مجرد ترف أو تنويع فني، أو وسيلة لإبراز معارف الكاتب، بل هي نصوص تشكل لغة تحمل إضاءات إديولوجية.

ب - تواتر معجم عبري كبير يشرحه المترجم في الهوامش لتقريب معناه إلى القارئ العربي. يشكل هذا المعجم نصا إضافيا لا يدرك معنى الرواية إلا بالارتهان إليه. فالمعجم الديني مثلا ليس مجرد كلمات محايدة لتعيين الشيء أو تسميته، وإنما هو عنصر أساس لبناء الشخصية وترسيخ حمولاتها، يحافظ عليه المترجم، ولا يعوضه بترجمة تقريبية. نسوق في هذا الصدد معجم اللباس؛ فلو كان المترجم مُهوَّسا بتقديم ترجمة عابرة لاختار من العربية ألفاظا ترادف تلك الأسماء، أومن اللباس المغربي ما ينوب عن ذلك، و يتيح للقارئ المغربي خاصة، امتلاك صورة ترتبط بمحيطه الثقافي(7).

يعي المترجم أن هذا المعجم مشحون بدلالات دينية تحدد هوية الشخصيات، وليس مجرد كلمات معجمية، أو إحالة عابرة على المظهر الخارجي للشخصية يمكن استبدالها بكلمات تقريبية أو مرادفة؛ ولهذا يحافظ على خصوصيته، ويحرص على دقة انتقائه. يتضح ذلك من خلال تواتر كلمات منها "شاشيا"، و"طاليت" و"تيفلّين".، وهي كلمات لولا موضوعية المترجم ووعيه النقدي لاستعمل بدلها معجما مستمدا من الثقافة المغربية يكون بديلا لها من مثل :"الطربوش" و"الشال" و"الشريط"،ولضاعت معه وعبر هذه الهجنة المعاني المقصودة. إن حرص المترجم على الدقة في ترجمة اللباس، واختيار ألفاظه يؤكد وعيه بان اللباس في النص لا يقف عند حدود وظائفه النفعية والاستعمالية. إنه هوية ثقافية، وأن النص الإبداعي لا يقوم على الصدفة أو التوافق في اختيار تعابيره ومعجمه، فكل ما فيه،وكما يرى رولان بارث، وظيفي(8).

اللباس في الرواية علامة مملوءة دلاليا(9). توجه القارئ إلى استقبال الشخصية باعتبارها حاملة لشحنة إديولوجية(10)، وليس مجرد علامة فارغة تمتلئ بالتدريج. اللباس علامة على تكثيف دلالي تقتحم من خلاله الشخصية العالم الروائي، سرعان ما ينثر مسارات سردية تتحدد من خلالها سمات ترتبط بالشخصية ؛ منها الاستقامة الدينية، والكمال الروحي. إنها مسارات تتجلى من خلال الطقوس الدينية التي تلتزم بها الشخصية،

وعبر صفاتها في الرواية، ومنها القداسة والأمانة والوفاء وغيرها. والسمات الدينية هي جزء مكون للبطاقة السميائية التي تحدد الشخصية باعتبارها شخصية مكتملة.

إننا أمام إنصات رزين للنص الأصل.هيأ له تمكن المترجم من اللغتين معا (العربية والعبرية )، بل من الثقافتين، ومن تنويعات اللغة العبرية وهمسها الذي لا يمكن أن يلتقطه غير متمكن منها. ففي الترجمة لا يحضر فقط البعد الجمالي والشعري للغة، وإنما هناك أبعاد أخرى ترتبط بالتركيب، والنحو، والفيلولجيا، والدلالة، وعلوم الدين، وغيرها من العلوم. فاللغة ليست مجرد حمولات معجمية - كما أشرنا -إنها رؤية وموقف يتخلل وعي المتكلم الذي ينتج الخطاب ولاوعيه. استطاع المترجم بذلك أن يحافظ على أبعاد الرواية الخفية، بفضل أمانته العلمية. وهي أبعاد لو لم يحترم المترجم الحقيقة اللغوية والنفسية للشخصيات لضاعت عبر رحلة الترجمة.

ورغم ما تثيره الرواية من تناقض مع العالم الأكسيولوجي للمترجم، فإن هذا الأخير كان محايدا وأمينا في نقل عوالم هذه الرواية بشخصياتها وسجلها اللغوي وفضائها، وقادرا على تقديم نظرة المبدع ووجهة نظره وإديولوجيته. ولعل أهم ما يمكن أن نشير إليه كمثال على الأمانة العلمية، تواتر بعض الكلمات القدحية في حق الشخصيات غير اليهودية، ثم تعيين الشخصيات من قبل كاتب الرواية بالعرب، مع العلم أن المنطقة لم تكن تتكلم العربية. وترد كلمة عرب باستمرار دون أن يتدخل الكاتب لتصحيحها، إنه بذلك يحافظ على لاوعي كاتب الرواية الذي لا يكتفي باستثمار أحداث تاريخية، وإنما يمرر إديولوجيته الحقيقية. وتهدف هذه الإديولوجية إلى تحقيق أمرين :

-استعادة الإديولوجية الصهيونية التي تعادي العرب،

-وترسيخ دور الضحية الذي يبدو به اليهودي عبر التاريخ. فكأنه بذلك(المبدع) يحاول أن يوضح كيف أن العنف الموجه ضد اليهود متكرر في الزمان، ومتعدد في المكان.

وبهذا يغدو هدف المترجم وموضوعيته تفجير طاقتنا التأويلية، ودعوتنا إلى تفكيك النص بناء على ما يقدمه من مؤشرات، واستقباله في تنوعه وتعدده الفني والدلالي.

إن الترجمة إبداع وليست مجرد نقل نص من لغة إلى أخرى عبر البحث عن مترادفات.إنها إبداع، لأن المترجم يكتب النص وهو ممتلك لمعرفة تخول له الخلق. وبواسطة هذه المعرفة يمكن للنص أن يحافظ على معناه وإديولجيته، وهو ما تمكن منه

الأستاذ حيمد وهو يترجم هذه الرواية، أو يلبسها لبوسا عربيا يحس معه القارئ أنها غير مترجمة أصلا. وقد تضاعفت قيمة الترجمة بفضل المقدمة التوضيحية التي رافقت النص، وبفضل ما يقدمه المترجم من شروحات موثقة تغني خيال القارئ، وتساعده على إدراك جمالية هذا النص الروائي، بل تشكلت نصا موازيا يضيف الكثير إلى القارئ العربي خاصة.

**2- أهداف الترجمة**

تغدو ترجمة هذه الرواية، بناء على ما سبق، إضافة جادة إلى الثقافة العربية. وفرصة أمام القارئ المغربي للاطلاع على نصوص روائية عبرية مترجمة، وعلى كاتب يهودي ذي أصول مغربية،لاسيما وأن هذا المجال ما زال بكرا في الثقافة المغربية.

ولا تدخل الترجمة في باب التطبيع. إنها جزء من الاهتمام الثقافي لدى المترجم ومشروعه الفكري؛ اهتمام العالم والمقارن، والدارس والباحث، واهتمام أيضا بمكون من مكونات الثقافة المغربية والعربية، و فرصة أمام المبدعين المغاربة لاستثمار تيمات جديدة، ومواضيع مغايرة. فالمادة الروائية التي اختارها الكاتب يتداخل فيها التاريخ والواقع. وهي مادة غنية حاول **أشر كنافو** كتابة جزء غير تام منها، وربما يحفز ذلك المبدع المغربي للعودة إلى تلك المادة لكتابة الجزء الخفي الذي احتفت به كتب التاريخ والأدب.

تنقل الرواية ما وقع لطائفة يهودية خلال أواخر القرن الثامن عشر من نهب للأموال وتعذيب وحرق وقتل واضطهاد، إبان حكم أحد البشوات يدعى بوهاليس. يركز الروائي على هذه الأحداث محاولا جعل الصراع دينيا بين طائفتين. في حين تخبر كتب التاريخ و يؤكد المترجم أيضا، أن الاضطهاد قاسى منه اليهود والمسلمون معا، فقد قتل هذا الطاغية علماء مسلمين وغيرهم، ونكل بالبلاد والعباد. وفي مقدمة الأستاذ عبد الرحيم حيمد العديد من النصوص التي تؤكد تعرض المسلمين واليهود معا لاضطهاد هذا الباشا، وتنفي أن يكون اليهود لوحدهم ضحايا هذا الطاغية كما يرد في الرواية.

**3- بنيات الرواية ودلالاتها**

يستدعى بتر الأحداث التاريخية ضرورة جمالية ودلالية. فالرواية في بنائها محكمة تتوزع على فصول تنمو معها الحكاية بتطريز جميل يعتمد تقديم أهم الشخصيات،

ليعود بالتدرج إلى تطوير ما يرتبط بها. ولا نحس مع ذلك بهذا التوقف أو التعليق الذي يحدث للحكي. تتنوع الشخصيات وتتعدد، ويكثر الحوار الداخلي والمحكي النفسي الذي هو خطاب السارد عن الحياة الداخلية(11). وهما خطابان يستجيبان لطبيعة شخصيات قلقة و خائفة، تعيش الصراع، وفوضى الأفكار.

والرواية في توجهها العام القائم على البتر، رواية ببنيات مجردة، فيها بنية الحكاية وبنية الملحمة. وهما بنيتان تستدعيهما العوالم الأكسيولوجية التي تملأ النص.

تتجلى بنية الحكاية في سلسلة من المتتاليات تستثمر حالات من التدهور(12)، تمثل من خلال المشاكل التي تعترض الشخصيات؛ من تعنيف و قتل وسجن وتعذيب وإحراق، وعبر أحداث، تتراوح بين المنع واختراق المنع، وشخصيات تتوزع بين عالمين متقابلين؛ عالم الأشرار وعالم الأخيار. وبناء عليه تكون الشخصية اليهودية خيرة، وقادرة، وقوية ومغامرة باستمرار، في حين تكون الشخصية "العربية" شريرة وناقصة وضعيفة.

كما تقترب الرواية من بنية الملحمة عبر بناء الشخصيات. فالشخصيات متلاحمة ومتآخية تعيش عالما يخلو من التناقضات. عالم يعرف كمال الداخل والخارج.كمال الروح والعالم(13).

وتعيش الشخصية في هذا العمل الروائي - شأن الشخصية الملحمية- الأحداث كقدر تعلم أن يدا عليا تتحكم فيه، ولكنها يد تيسر أمورها (أي الشخصية) وتجعلها في وفاق تام بينها وبين نفسها، وبينها و بين باقي الشخصيات التي تشترك معها في المعتقد. وتحاول الشخصية أن تحافظ على إيمانها نقيا وصافيا، كما أنها لا تخضع لمؤثرات العالم الخارجي،لا سيما على مستوى المعتقدات الدينية.إذ تحضر الشعائر الدينية طقوسا دقيقة لا تخل الشخصيات بها، إن على مستوى الصوم أو الصلاة أو اللباس أو الطقوس الشعبية حتى في أصعب اللحظات. هي أيضا شخصيات مكتملة لا نقص فيها(14)، ولا تحتمل السؤال أو الشك.تتسم بالبطولة والشجاعة، تخاطر تقطع المسافات وتغامر وتتغلب على كل الصعوبات ولا تختلف في ذلك عن البطل الملحمي(15).

و الشخصيات وإن كانت فردية، فإنها لا تعي نفسها إلا في إطار الكل الذي إليه انتماؤها. شخصيات تؤلف بينها قيم جماعية؛ فيها الدين بشكل كبير والعادات والتقاليد والهوية اليهودية.

تستدعي هاتين البنيتين أطروحة الرواية. ولا تشكلان، رغم، ذلك ضعفا فنيا أو هفوة جمالية. فالرواية تريد تصوير الشخصية اليهودية المكتملة وتوضح تآخيها وتآزرها و استعدادها المميت للدفاع عن هويتها مهما تطلب الأمر، بل تحاول تمرير أخطر من ذلك؛ فالشخصية اليهودية هي أيضا شخصية أسطورية وذات كرامة، تسوق الرواية منها شخصيات متعددة مدفونة في المغرب يعود تاريخها إلى زمن بعيد سابق للفتح الإسلامي، والكاتب بذلك -كما أشرنا -يمرر الإديولوجية الصهيونية التي ترسم أرض الميعاد من الشرق إلى المغرب، وتحلم،بل تدعو إلى أوروشاليم الجديدة والمتسعة، وتؤمن بعودة المسيح اليهودي (لا المسيحي)الذي سيخلص العالم من الظلال.

وكما يتعاقد النص مع بنيتي الحكاية والملحمة، يدافع عن روائيته بشكل عميق، فلا يكتفي بمكونات ظاهرة، منها الشخصيات والمكان والزمان، لأن تلك عناصر مشتركة بين مختلف المحكيات سواء كانت قديمة ؛مثل الحكاية والملحمة والمقامة، أوحديثة مثل القصة والمسرحية أوغيرهما.

بالنص بنية روائية مجردة اعتمدها ومازال يعتمدها العديد من الروائيين في العالمين الغربي والعربي(16)، تقوم على علاقة البطل، سواء كان فردا أو جماعة، بالمجتمع. وهي علاقة نشاز، وهوة لأن البطل يحمل قيما لا يؤمن بها المجتمع، و يدافع عنها باستماتة. قيم لم يعد لها وجود في عالم زائف. وتستدعي هذه البنية خاصية أخرى تمثل في انتفاء النهاية(17)، لا بوصفها مكونا عضويا في النص الروائي، وإنما مرحلة نهائية يستحيل خلالها الصلح مع العالم، و إصلاح النقص الحاصل في البداية. ولهذا تكون نهاية البطل عادة في هذه البنية الروائية إما الموت أو الجنون إعلانا عن القطيعة مع العالم ورفضه، لأن البطل لا يتنازل عن قيمه؛ قد يتواصل مع الآخر، لكنه يظل محافظا على إيمانه نقيا. تحقق رواية **صبي من إفرن** هذا المسار، بحيث تتواصل الشخصيات مع الآخر المسلم، ولكنها لا تتنازل عن قيمها، ولا تتصالح مع الواقع الذي يفرض عليها قيما لا تؤمن بها، وتختار الموت سبيلا لرفض العالم، وما به من قيم تراها مزيفة.مسار تنتهي به رواية **صبي من إفرن** حيث تختار الشخصيات أن تموت احتراقا، على أن تتخلى عن دينها عندما يرغمها بوهاليس على ذلك

.

**خاتمة**

في الرواية مداخل عديدة تستدعي دراسات متأنية تكشف جمالية الرواية وبناءها وعوالمها الدلالية؛ لعل أهمها المعجم الديني ودوره في بناء دلالة النص. والتاريخي في النص وغيرهما. وهي مداخل ما كان للقارئ أن يكتشفها لولا هذه الترجمة الموضوعية الجادة و العالمة الرصينة التي قام بها الدكتور حيمد، جزاه الله خيرا. ويعود فضل ذلك إلى تكوينه اللساني والأدبي الرصين، ووعيه بما تقوم عليه الترجمة من موضوعية، وما تستند عليه من معرفة بعلوم مختلفة، وما تتطلبه من إلمام بالثقافتين. وتلك أسس لا بد منها لنقل أمين لرؤية المبدع للعالم وأطروحته. ويفتح المترجم بهذه الترجمة أمام المهتمين بالثقافة المغربية باب الاشتغال على مكون من مكونات الثقافة المغربية، وعلى جانب من جوانب هذا المكون؛ وهو السرد المكتوب بالعبرية. نتمنى أن يقرأ القارئ هذه الرواية بما يوازي هذه الرصانة والعمق المعرفي لدى المترجم، بعيدا عن أحكام القيمة والأفكار الجاهزة التي تجهز على ترجمة النص وجماليته.

---

1-محمود كيال : **حركة الترجمة من الأدب العبري الحديث إلى اللغة العربية**،انظر المقال على الموقع التالي http://www.arabicac.com/content.aspid=284

2-المرجع نفسه.

3-بديعة الطاهري : **السرد وإنتاج المعنى**، القاهرة،دار رؤية للنشر، 2015، ص .6

4-بديعة الطاهري : "النص الإبداعي وسؤال الهوية الروائية " انظر **كتاب : أبحاث المؤتمر 15 حول الرواية العربية في مائة عام**، مصر منشورات جامعة قناة السويس، 2015

5-أشر كنافو، **صبي من إفرن**، ترجمه من العبرية عبد الرحيم حيمد، أكادير، كلية الآداب والعلوم لإنسانية ، جامعة ابن زهر 2014

6-انظر مثلا الهوامش التالية في الصفحات 28، 56، 58، 138 وغيرها.

7-منها طاليت، تفلّين وشاشيا انظر شروحات المترجم ص18 ص 34 وغيرهما

8- Rolland Barthes : "Introduction à l'analyse structurale des récits" ,p15 , 1966 ,**Communications N°8**

9- PHILIPE Hamon : "Pour une sémiologie de personnage" **Poétique du récit**, Seuil, 1977

10- Mikhaïl Bakhtine : **Esthétique et théorie du roman**, Gallimard1978, p153

11- Dorrit Cohn : **La transparence intérieure** : **mode de représentation de la vie psychique dans le roman**, Seuil,1981,p37

12- Claude Bremond : "Les bons récompensés et les méchants punis, morphologie du conte merveilleux français" , in **Sémiotique narrative et textuelle** ,Larousse ,1973,p97

13-جورج لوكاتش : **نظرية الرواية** ترجمة الحسين سحبان، الرباط،منشورات التل، 1988،ص56،

14-ميخائيل باختين : مرجع سبق ذكره،ص 153.

15انظر مثلا مسار الشخصية الأولى في النص الروائي(قادوش) إذ حضوره في النص ياتي عبر ترسيخ هذه القيم.

16- Lucien Goldman : **Pour une sociologie du roman,** Gallimard**,** 1964, p35

17-جورج لوكاتش :**مرجع سبق ذكره**، ص60